المحاضرة السابعة: الغموض في النص الشعري المعاصر

تمهيد:

الغموض في الشعر العربي المعاصر ظاهرةٌ أدبيّةٌ فرضتْ نفسها، فلا يخلو نص شعري إلا وعزاه الغموض، فيحتاج القارئ فيها إلى التسلح بعديد المفاهيم حتى يفك شفرات النص، ولم يكن الغموض وليد اليوم بل كان ظاهرة أيضا في الشعر العربي القديم ولكنه لم يكن بدرجة كبيرة من الشيوع، وقد عد في بعض الأحيان من عيوب الشعر، ومن الأمثلة على ذلك ما قاله المتنبّي ملامساً المنطق والفلسفة:

ولَجِدْتَ حتّى كِدْتَ تبخلُ حائلاً للمنتهى ، ومن السرور بكاءُ

ومن شعره أيضاً ، ممّا يقترب فيه من معاني المتصوّفة:

كبرَ العِيانُ عليَّ حتّى إنّه صار اليقينُ من العِيان توهّما

ومِن ذلك أيضاً استعراض الشاعر(أبي نُوَاس) لمعرفته الفَلَكيّة ، حيث يقول:

ألم ترَ أنّ الشمس حلّتِ الحَمَلا وقام وزن الزمان فاعتدلا

وغنّتِ الطيرُ بعد عُجْمتِها واستوفتِ الخمرُ حولَها كملا

ونذكر أيضا في هذا الصدد " أبو تمام" حين سئل عن سبب الغموض في شعره، فقيل له :

-يا أبا تمّام لِمَ تقولُ ما لا يُفهَم؟ فكان ردّ أبي تمّام:

- لِمَ لا تفهمُ ما يُقال؟

الغموض في شعر الحداثة

وفي العصر الحديث يمكن القول أن الغموض هو أحد أبرز تجليات الحداثة في الشعر ، نتيجة التغيّرات والتطوّرات التي طرأت على الظاهرة الشعرية من: التشكيل الموسيقي ، والصورة الشعرية، والبناء الشعري، والميل إلى النزعة الدرامية، واللجوء المكثّف إلى الرمز والأسطورة . كما أسهمت مجموعة من الأبعاد في الغموض لعل أبرزها:

- **البعد الفكري والفلسفي:** حيث عمد شعراء الحداثة إلى مزج الفلسفي بالأدبي، ومحاولة تجريد الشعر وإضفاء الخصائص الفكرية عليه، ومن نماذج التفلسف في الشعر وتجريده نجد الشاعر السوري أدونيس حيث يقول:

ويدور في خَلَدِ الحقول

الحبّ زهرة رغبة
والشعر فاتحة العقول
أي أنّ الشعر والفكر متلازمان ، وفق هذه الرؤية، في حين أنّ الشعر عادة مايستلهم آفاق الفلسفة ومناخها العام ، دون اعتماد مناهجها وأساليبها.
- **البعد الماورائي الغيبي:** وقد أسهم في هذا البعد الأسطوري ونزوع الشعر إلى معالجة موضوعات ذات بعد ماورائي غيبي مثل الموت والعرفان وغيرها، وهنا نجد أدونيس يقول:
-طفولتي لا تتوقف عن الميلاد
بين يدي النور
الذي أجهل اسمه،إنّه الشعر الوفيّ أبداً لما سوف يأتي
-**البعد الصوفي:**شكلت النزعة الصوفية نوعا من الهروب من واقع مخيب، إلى عالم متصنع، يختلى فيه الصوفي بالروحانيات والعشق والزهد وغيرها، وهنا يقول أدونيس معبّراً عن الإحباط ممّا آل إليه الواقع العربي:
- في حقول الكآبة، في العشب أرسم أيامي الحجرية
كاسراً صفحة المرايا
بين شمس الظهيرة والماء في البركة الآدمية
-**البعد الرمزي والأسطوري:** يمثل الرمز اختصار لتجربة من التجارب التي ترتبط فيه التجربة مع موضوع بعينه ويرتبط به ،فيرتبط بالتجربة الشعورية للشاعر، وهي التي تمنح الأشياء مغزى خاصاً. أمّا الأسطورة فإنّها تعبر عن تجربة الشعوب في صناعة الرموز وتعتبره حقائق وجودية وكونيّة. على أنّ الأسطورة ميزة من ميزات الكتابة الشعرية المعاصرة .هذا وقد بدأ يتّضح استخدام الأسطورة في الشعر الحديث بدءاً من خمسينيات القرن الماضي ، بل إنّها أضحتْ مصدراً للإلهام الشعري بما يساعد الشاعر على التّخيّل والتأمل الفلسفي، فضلاً عن كونها ذات صلة موضوعية وفنية بالشعر، وإنّ أدنى تأمّل في أشعار أدونيس والسياب والبياتي وخليل حاوي يظهر مدى تأثّرهم ومثْحهم من أساطير الخِصب والبعث والميلاد (أدونيس، العنقاء، الفينيق، عشتار،..)، ناهيك عن أساطير الشرق القديمة، والشخصيات الدينية الواردة في الكتب السماوية. لقد مثّلت الأسطورة للشاعر الحديث شكلاً جديداً من أشكال التعبير ، بما يمكّنه من تجاوز

التقاليد الشعرية القديمة، وإضفاء سمة درامية على القصيدة الشعرية تنأى بها عن النزعة الغنائية التي تغلب على الشعر العربي .

إنّ اعتماد الشاعر الحداثي على ثقافته ومخزونه المعرفي أكثر من الخبرات والتجارب الشخصية المكتسبة، هي من أسهمت في تكثيف الرمز في النص المعاصر فضلا على البحث عن الدلالات المخفية في الألفاظ، فهو يستعمل الألفاظ لتعمية القارىء عن معانيه التي يريدها.

أسباب الغموض في النص الشعري

هناك مجموعة من العوامل التي دفعت بالغموض في النص الشعري الحديث لعل أهمها ما ذكره أحد النقاد حين حصرها في ثلاثة أسباب هي :

أسباب مُتعلّقة بالقارئ: يختلف القارئ الحديث عن القارئ القديم كما يختلف الشاعر الحديث عن الشاعر القديم، فقارئ الشّعر العربي في العصر الحالي طغت عليه العجلة ، وأثرت عليه الحضارة الماديّة، وجردته التقنية من الوقتً ، وجعله شخصا سريعا يغلب عليه العموميات والشمولية.

مُتعلّقة بالقصيدةِ نفسِها: اختلفت القصيدة المعاصرة عن القديمة من حيث الشكل والمضمون ، فإذا تغيّرت الأزمان وتغيّرت الظّروف؛ تحوّلت المعاني وصارت لها دلالات مبهمة، فتبدلت القصيدة إلى الغموض.

أسباب مُتعلّقة بالشّاعر ومذهبه الفكّريّ والشّعريّ: فالرّمزيون مثلًا يعتقدون أنّ المعنى في القصيدة ليس واحدًا محدّدًا؛ لأنّ الكلمات في رأيهم لا تؤدّي معنًى واحدًا خاصًّا. مظاهر الغموض في الشعر العربي المعاصر لجأ الشّاعر إلى الغموض ابتعادًا منه عن التّقليد والبساطة، وعمل على تكثيف الصّور الخياليّة وتقحيم المشاعر والانفعالات، فتلوّن نصوصه بضبابيّة غموضيّة.

خاتمة:

تحول الغموض في عصر الحداثة من عيب في الشعر إلى براعة شعرية وذلك لعدة أسباب، وقد أسهم الغموض في تحول جذري في النظر إلى النص الشعري نقديا وجماليا، فقد أصبح معيارا جماليا لا غنى للشاعر عنه، غير أنه حدود توظيفه ومجالات استعراضه هي النقطة التي تعوز شعراء العصر الحديث.